فلسفة الحضارة ومنهج التغيير

في كل حضارة قامت لابد من توافر عنصرين أساسيين:

١- منهج تقوم عليه (عقيدة أو رسالة).

٢- أفراد يحملون المنهج (يلزم فيهم الإيمان العميق بالمنهج مع همة عالية لنشره بين الناس).

بالنسبة للمنهج والأفراد هناك آلية التغيير أو فلسفة التغيير، وتشمل ثلاث ضرورات:

١- ضرورة فكرية: تتمثل في الفهم الصحيح لمقومات هذه الحضارة .

٢- ضرورة إدراك : تتمثل في التشخيص السليم لأدواء الأمة .

٣- ضرورة طرح: وتتمثل في المشروع الإصلاحي المقترح طرحه للخروج من المأزق وتغيير الواقع.

مثال : يشبه ذلك عمل الطبيب الذي يداوي الناس والذي لابد له من هذه الضرورات الثلاث :

١- ضرورة فكرية (علمية) : تتمثل في دراسته الطويلة للطب .

٢- ضرورة إدراك: تتمثل في استيعاب المرض وتشخيصه تشخيصا صحيحا.

٣- ضرورة طرح: وتتمثل في الرؤية أو التصور أو الخيار الذي يطرحه الطبيب لعلاج المريض (دواء ـ منظار ـ جراحة .. إلخ).

مفهوم الحضارة

- الحضارة هي نظام اجتماعي يفرز نشاطا إنسانيا في جميع المجالات.

- وكل حضارة لها ركيزة وثمرة.

١- أما الركيزة فهي الأساس والدعامة الذي تنهض عليه الحضارة لتؤتي ثمارها كما سوف يأتي تفصيله.

٢- وأما الثمرة فهي النتيجة الطبيعية لهذه الأسس وهي الإضافة التي تقدمها هذه الحضارة إلى الإنسانية من نهضة ومدنية في كل مجالات الحياة من زراعة ـ تصنيع ـ عمران ـ تسليح.

- الركيزة التي تقوم عليها الحضارة تمثل الجانب المعنوي من (عقائد - ثقافات - قيم - أخلاق - مناهج - نظم - تشريعات - سياسات - مبادئ - أفكار).

- ولو أردنا أن نختار واحدة من المفردات السابقة لتفي بالباقي فلن نجد أفضل من كلمة ثقافة .

مفهوم الثقافة :

- الثقافة هي منظومة القيم النظرية والعملية التي تحكم:

١ – مفاهيم الإنسان (أفكار ـ قيم ـ تقاليد ـ معتقدات) وهذه هي القيم الفطرية.

٢ – سلوكه العملي (أخلاق – أفعال – تصرفات) وهذه هي القيم العملية.

– مصادر الثقافة (العوامل التي تشكل ثقافات الشعوب والأفراد):

أ – موروثات: وتتمثل في (الدين – التقاليد).

ب– مؤثرات: وتتمثل في كل عوامل التأثير من كل ما يسمع – ويرى – ويحس..

– وهذا ما يسمونه بفنون الأمم وآدابها.

مثال: في البلاد الحارة يلبس الناس لباسا معينا فوق الرءوس.. كالقبعة الصينية أو العقال العربي، فهذا مؤثر بيئي (محسوس) وهو الطقس الحار ولد نمطا ثقافيا تمثل في لباس بعينه.

– إذا فمن الخطأ اعتبار الثقافة محصولا كميا من المعارف.. وإنما هو سلوكيات اجتماعية وأنماط أخلاقية.

– ولعل هذا هو السر في أن واحدا من رواد الإصلاح والتغيير مثل حسن البنا رحمه الله عندما صاغ فهمه للإسلام في عشرين أصلا جاء أولها – والذي تناول مسألة شمولية الإسلام – على النحو التالي:

– الإسلام دين شامل يتناول كل مظاهر الحياة فهو دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وخلق وقوة، أو رحمة وعدالة، وثقافة وقانون، أو علم وقضاء.. إلخ.

– فقد رتب الثقافة مع القانون والعلم مع القضاء .

– وكان الأجدر حسب فهم الوهلة الأولى أن يجعل العلم مع الثقافة، والقانون مع القضاء، والسر في ذلك الترتيب هو:

١ – ليست الثقافة محصولا كميا من المعارف كما أسلفنا، فلا مجال لوضعها مع العلم.

٢– القضاة فى التصور الإسلامى والتاريخ الإسلامي هم نخبة من علماء الشريعة فلا غرو أن يزاوج بين العلم والقضاء .

٣– والأهم: أن القوانين التى تحكم أمة ما أو شعبا ما لابد أن تكون نابعة بالضرورة من تراثها ومعتقداتها وتقاليدها (يعنى إجمالا ثقافتها) فوضعها البنا مع القانون، وذلك على اعتبار أن ما هو عيب يؤاخذ عليه القانون في بلد ما قد لا يكون كذلك في بلد آخر وذلك لاختلاف الثقافات.

- ولو أردنا أن نسوق الأمثلة الواقعية على ذلك لوجدناها كثيرة:

١ – أحد علماء الطب الكبار فى الولايات المتحدة، وهو مصري صعيدي مسيحي أ.د. إميل تناغو / أستاذ المسالك..

- فوجئ بأحد الشبان يتصل بابنته عبر الهاتف كثيرا ويسأل عنها، فكان ينهره..

- ثم فوجئ به يوما يطرق الباب يسأل عنها، فما كان منه إلا أن طرده.. كل هذا لأنه رجل متدين، أو على الأقل نشأ في بيئة أحد معالمها الثقافية أن مصادقة الفتى للفتاة خارج إطار الزواج حرام أو عيب أو لا تصح.

- فما كان من الفتى إلا أن شكاه إلى السلطات .

- وفوجئ الأستاذ الكبير والعالم الجليل بنفسه داخل القفص في داخل المحكمة؛ لأنه تدخل في الحرية الشخصية لابنته وأهان صديقها.

- فتدخلت شخصيات كبيرة لها وزنها وبذلت جهدا كبيرا في إقناع المحكمة بإعطاء الرجل فرصة أخرى؛ لأنه يجهل تقاليد وثقافة المجتمع الأمريكي ولأنه من مجتمع آخر له ثقافته المغايرة.. وكل هذا فقط لأن د. تناغو قيمة علمية كبيرة على الولايات المتحدة ألا تخسرها.

٢- والعيب قد يختلف من مجتمع لآخر يدين بنفس الدين:

- حدثنا أحد الإخوان المصريين الذين عملوا في اليمن أن أحد اليمنيين كان له صديق سوداني يتردد عليه في متجره، وكان جالسا معه

ذات ليلة، فأقبلت طفلة عمرها تسع سنوات هى ابنة اليمنى تطلب منه أشياء أرسلتها أمها في جلبها، فلما علم السوداني أنها فلانة ابنة صديقه والتي كان يحملها ويداعبها يوما ما.. لما علم ذلك هتف مندهشا: فلانة .. ما شاء الله.. لقد صرت عروسا.

ثم قبلها!!

هنا استل اليمني خنجره الذي لا يفارقه وصمم على قتل صديقه؛ لأنه اعتدى على ابنته التي لا يراها طفلة كما رآها السوداني ولكنها بتعبيره "حرمة" .. ولم ينقذه من الموت بعد مشيئة الله سوى تدخل الناس مكتفين بطرد الرجل.

٣- حدثنا أحد الإخوان المصريين والذي عمل في إحدى مدن الأردن محفظا للقرآن في مسجد الحي ، أنه ذات يوم أجاد غلام (في حدود التاسعة أو العاشرة) حفظا وتلاوة، فحياه المحفظ وربت على كتفه وقبله.

بالطبع لم يكن الرجل يعرف أن لهذه الأمور في المجتمعات البدوية تأويلا سيئا.

- فقامت أزمة تدخل فيها بعض الأفاضل وبصعوبة استطاعوا إقناع والد الغلام وإخوته الكبار وأعمامه بأن هذا الأمر طبيعي عند الإخوة المصريين وأن الرجل لم يقصد سوءا.

– ثم مال أحدهم على المصري وحذره مغبة هذا الأمر ونبه عليه بعدم تكراره، فأقسم الرجل على سلامة طويته وسأله: فماذا أصنع بديلا عن تقبيله إن أردت أن أشجعه؟ قال الأردني: تضرب على فخذه أو إليته. قال المصري: لكن هذا عيب عندنا. قال: ولكنه ليس عيبا عندنا!!

٤– روت إحدى الطبيبات السوريات لنا قصة مؤداها أن شقيقها سافر إلى أمريكا لدراسة البورد الأمريكى في الطب.. فلما وصل إلى المستشفى الذي رتب عليه وجد هناك طبيبا مصريا مسلما، فاطمأنت نفسه وسر أيما سرور وأبلغ سعادة وظل ملازما له ليتعلم منه باعتباره عربيا مسلما وأقدم منه في المكان.

–وفي أول يوم له كان يعمل في العيادات الخارجية أبصر فتاة أمريكية حسناء.. جلست على طاولة الكشف وخلعت ملابسها وأشارت إلى عصعصها؛ ليجد الأخ السوري كتلة سوداء صلبة.. فحزن أن تكون فتاة في ريعان شبابها وتصاب بسرطان العظام في هذا الموضع الحساس.

– ولكنه لم يفعل لها شيئا حتى يراها أخوه المصري الذي تعامل مع الأمر بهدوء عجيب .. فقد طلب من الممرضة طلبا، فأتته بزجاجة وقطعة من القطن بللها بالمادة التي في الزجاجة ثم مسح بها هذه الكتلة الصلبة فإذا بها تزول فورا.

– فتعجب السوري أن يتقدم الطب عندهم إلى درجة أن ورما كهذا يزول بمادة أيا كانت...

– فلما صارح أخاه المصري بذلك.. ضحك طويلا وقال : أي ورم تقصد يا رجل؟!

أولا المادة هي سائل الكحول.

– والذي تسميه ورما هو غائط جاف !! نعم غائط جاف؛ لأنهم هنا لا يغسلون أدبارهم بالماء بعد الغائط مثلنا، بل يمسحونها بالورق..

– ولأن الفتاة أمريكية فهي دائما في عجلة من أمرها.. فتمسح بعد كل غائط دبرها بسرعة هكذا من الأمام إلى الخلف وهكذا فتتجمع بقايا الغائط في هذا المكان الضيق.. خاصة وأن الاستحمام عندهم قليل!

٥– منذ سنوات قرأت في الصحف إحصائية عجيبة عن نساء فرنسا اللاتي يعتبرن أكثر نساء العالم حرصا على جمالهن.

– الإحصائية كانت تدور حول معدل الاستحمام، فكان أكثر من نصفهن – حوالي (٦٠٪) – يستحممن كل ٦ أشهر، وأكثرهن نظافة – وهي نسبة بين ٥ – ١٠ ٪– يستحممن كل أسبوعين، وذلك بالطبع لأنهن يكتفين باستخدام العطور ومزيلات العرق.

- بينما المرأة المسلمة مثلا، حتى التي لا تصلي:

لابد أن تستحم عقب الجماع.

ولابد أن تستحم عقب الطهر من الحيض.

- كل هذه مؤثرات ثقافية ناتجة عن الدين.

٦- روت المذيعة المشهورة آمال فهمي أنها زارت باريس في ستينيات القرن الماضي. ولما سألت موظف الفندق الذي نزلت فيه : أين حمامات الفندق؟ أجابها ليس لدينا حمامات. ولكن بإمكانك الذهاب إلى أحد الحمامات العامة بالأجر ولا تنسي أن تأخذي ليفتك معك!!!

- إذا فالركيزة المعنوية (الثقافة) في أي حضارة هي الأساس الذي يقوم عليه بناء الحضارة والجذر الذي ينتهي إلى الثمار .

هذه القيم الثقافية للحضارة الإسلامية على تعددها يمكن أن يجمعها ثلاثة أنواع من القيم الحضارية في الإسلام تحديدا وهي:

١- التحرير الوجداني المطلق لله رب العالمين:

- إن الذين يدينون بالعبودية والتأليه للأغيار من طواطم وأوثان وبشر، يؤلهونهم ويعبدونهم من دون الله رب العالمين، قد تفرق ولاؤهم وتشتت وجدانهم.

– فافتقدوا الإحساس بالأمن والأمان والسكينة والاطمئنان الذي لا يعرفه ولا يحس به إلا من دان بالعبودية لله الواحد الحق.

– فتوحيد العبودية وتوحيد التأليه لله وحده يترتب عليه أن يتحرر وجدان المرء وكيانه من رق العبودية لغير مستحقيها لتذهب إلى مستحقها سبحانه وتعالى، فينطلق الوجدان والعقل من إسار العبودية لغير الله وما يترتب عليها من اضطراب وخوف وقلق فيبدع في كل مجالات الحياة وينتج ويخرج للإنسانية الروائع .

وهذا هو سر العلاقة العجيبة (في الحضارة الإسلامية) بين قيم وعقائد وثقافات الإسلام (وكلها فرع من توحيد الله عز وجل وتحرير الوجدان والولاء له من إسار العبودية لغيره) وبين نتاج ذلك كله من روائع هذه الحضارة المتمثل في ثمارها من: طب – رياضيات – فلك – كيمياء.. إلخ .

٢- المساواة الإنسانية الكاملة:

– بعض الحضارات، كالحضارة الغربية الحديثة، تتسم بمبدأ المساواة الكاملة بين البشر، بل إن هذا هو سر بقائها وصمودها حتى اليوم، رغم اجتماع الكثير من عوامل انحلالها وتحللها التي تؤذن بانهيارها .. ولكن ..

- هذه المساواة لا تتعدى حدودهم الجغرافية أو أسوار الوطن إلى غيره من الأوطان.

- **بعبارة أخرى**: هذه الحضارة قامت على عدة ركائز معنوية وثقافات، من أهمها تفوق الرجل الأبيض وجدارته بقيادة البشرية والتمتع بخيرات الكون، مهما قيل خلاف ذلك كما سوف يتضح في نهايات الباب الأول.

- وهذا فرق جوهري بين هذه الحضارات والحضارة الإسلامية التى يتساوى فيها البشر أيا كانت ألوانهم وأجناسهم، وحتى مع من يخالفونهم في الدين والعقيدة، وذلك لأن الإسلام من خلال النصوص المقدسة والسيرة العملية لصاحب الرسالة ﷺ كان صريحا في تحديد معيار التفاضل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، وقوله ﷺ: "كلكم لآدم وآدم من تراب، ولينتهين قوم يفتخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان". (رواه البيهقي والترمذي وأبو داود، وللشيخين مثله بألفاظ قريبة).

- وجماعته الأولى ﷺ التي حوت الفارسي والرومي والحبشي واليهودي.

وللإسلام فلسفة عجيبة وأدب عال لا يدانيه فيه أحد مع المخالفين في الدين والعقيدة ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾[الممتحنة].

ويتضح ذلك من خلال النماذج العملية والتاريخية الواردة في فصل: ثقافة التنوع والتعددية واحترام الآخر في الإسلام .

٣- التكافل الاجتماعي الوثيق:

- في سورة الشورى ذكر الله تعالى بعض دعائم الدولة الفاضلة: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[الشورى].

أ- الذين استجابوا لربهم : دعامة إيمانية تتمثل في الإيمان بالدين .

ب- وأقاموا الصلاة : دعامة تربوية تتمثل في العبادة المترتبة على الإيمان.

ج- وأمرهم شورى بينهم: ركيزة سياسية تتمثل في الشورى وهي الضمان الأكبر للعدل الذي هو أساس الملك القوى .

د- ومما رزقناهم ينفقون: دعامة اجتماعية تتمثل في التكافل الاجتماعي.

وفي باب التكافل نصوص كثيرة نكتفى بالآية السابقة مع حديث رسول الله ﷺ : «ليس منا من بات شبعان وجاره جوعان» (رواه الحاكم).

- مع التراث العملى الرائع في التكافل في دولة الرسول ﷺ بالمدينة بين المهاجرين والأنصار.

نماذج تاريخية للتكافل:

١- كفالة مجتمع المدينة بمهاجريه وأنصاره رجلا مثل سلمان في أمر عتقه من سيده اليهودي الذي طلب ثمنا تعجيزيا مقابل عتقه وهو أن يزرع له ثلاثمائة نخلة.

من جانبه قبل النبي ﷺ التحدي ولم يبذل أدنى جهد في استغلال سلطاته ونفوذه كرئيس للدولة بمسلميها ويهودها في الضغط على اليهودي ... بل دعا الجميع إلى التعاون، وكان يأخذ الفسائل بعد جلبها بيديه الشريفتين فيدعو عليها ويباركها ويضعها في مكانها.. حتى مرت التجربة بسلام ونال الرجل حريته.

٢- ومثل ربيعة بن كعب الذي اكتتب المسلمون جميعا ليجمعوا له الصداق حتى يتزوج.

٣- ومثل هذا الجندي الذي سقط قعبه في البحر بينما المسلمون يعبرونه لملاقاة الفرس، فصاح قعبي قعبي، فتوقف الجيش كله للبحث عن قعب أخيهم، والفرس على الجانب الآخر يرقبون المشهد العجيب، حتى قال أحدهم فرقا: إذا كان هذا حالهم في قعب أحد يفتقده، فكيف بهم لو نال أحدهم منا أذى؟!

* * *

حضارة أم نهضة؟

يفرق علماء الاجتماع بين مفهوم الحضارة الكاملة ببعديها المعنوي والمدني وبين المدنية (في جانب من جوانب الحياة أو كلها) التي تفتقر إلى البعد المعنوي أو الأخلاقي.

من أمثلة التاريخ (التي توضح الفرق بين الحضارة والنهضة):

١- المغول الذين اجتاحت جحافلهم نصف العالم خلال عقود قليلة من الزمان سرعان ما انهارت ليشهد العالم حالة فريدة في التاريخ من تحول المنتصر وهم التتار إلى دين المهزوم وهم المسلمون، وذلك لأن حالة التتار ليست حضارة بأي حال ولا تعدو أن تكون نهضة عسكرية (تفوقا عسكريا) تفتقر إلى أي رصيد من قيم وعقائد.. صادف ضعفا شديدا عند الآخر.

الحضارة الغربية (ونحن نسميها حضارة مجازا) وإلا فهي نهضة وعمرها منذ قامت إلى حين انهيارها المتوقع لا يزيد عن ثلاثة أو أربعة قرون، وهذا قليل جدا بالنسبة لأعمار الحضارات.

ولكن كيف نقيم الحضارات؟

أسس تقييم الحضارات كما يراها د. مصطفى السباعي:

كلما كانت الحضارة:

١- عالمية في رسالتها.

٢- إنسانية في نزعتها.

٣- أخلاقية في اتجاهاتها.

٤- واقعية في مبادئها.

.. كلما كانت ...

١- أبقى على الزمن.

٢- وأخلد في التاريخ.

٣- وأجدر بالتكريم.

- والذي يراه كل منصف أن الحضارة الإسلامية قد حازت هذه الشروط والموازين جميعا.

فهي التي كانت ولا زالت تقدم نشر رسالتها الفكرية والاعتقادية على كل المطالب، وهي التي تغلب النواحي الأخلاقية - كالوفاء بالعهود ولو مع المشركين، وإكرام الأسير وعدم المثلة بأجساد الموتى- على كل اعتبار، وقصتا فتح سمرقند، وحصن بابليون - على سبيل المثال - توضحان ذلك .

قصة فتح سمرقند:

- مدينة سمرقند وهي الآن تتبع جمهورية أوزبكستان .

- كانت مدينة حصينة فتحها المسلمون بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي زمن عمر بن عبد العزيز بعد مقاومة شديدة وحصار طويل.

- ولكنهم بعد دخولها أمروا بالعودة مرة أخرى خارج الأسوار .. لماذا؟

لقد اكتشف أهل المدينة بعد سقوطها أن المسلمين لم يفعلوا معهم شيئا كان يجب أن يفعلوه حسب دينهم، ألا وهو عرض الإسلام عليهم ودعوتهم إليه.

فبعثوا بشكاة إلى عمر بن عبد العزيز الذي أوكل عنه (لبعد المسافة بين دمشق وسمرقند) قاضي أقرب البلاد المفتوحة.

- فاستمع القاضي إلى أهل سمرقند واستمع إلى قتيبة ورجاله الذين كانوا يستندون إلى رأي فقهي له وزنه ولا يستهان به، وهو جواز فتح البلاد دون عرض الإسلام على أهلها ودعوتهم إليه إذا كان أمر الإسلام قد انتشر بحيث لم يعد مجهولا لأحد.

- لكن القاضي الذي يحكم باسم الخليفة حكم لأهل سمرقند .

- فصدرت الأوامر أن تعود الجيوش أدراجها خارج الأسوار بعد كل العناء والوقت الذي بذل.

– لماذا؟ لأنها حضارة أخلاقية في اتجاهاتها.. حضارة قامت على رسالة هي أغلى وأعز من فتح البلاد ومن الدنيا كلها.

– وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة في التاريخ .. التي عادت فيها جيوش منتصرة بمحض إرادتها إلى خلف خطوط الهدنة.

– يذكرني ذلك بمقولة لأحد قادة الغرب العسكريين حيث يقول:

– إنك لا تستطيع أن تصل على موائد المفاوضات إلى أبعد مما وصلت إليه مدافعك في ميادين القتال .

– وصدق .. ولكن أهل سمرقند استطاعوا.. وذلك لأنهم كانوا يحاربون عدوا يختلف عن الآخرين .

قصة فتح حصن بابليون:

– وهو حصن بناه الرومان مكان ما يسمى الآن بمصر القديمة بمدينة القاهرة.

– كان الحصن كبيرا ومنيعا فاحتاج من عمرو بن العاص وجيشه حصارا طويلا مرهقا.

– وقد أرسل الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو رسالة طويلة يوبخه فيها لتأخر الفتح، ويرى فيها أن ذلك التأخير لابد وأن يكون سببه الذنوب، ويدعوهم إلى التوبة ونبذ المعاصي ليستحقوا نصر الله،

وبعد طول حصار (ستة أشهر في بعض الروايات) اتفق عمرو ورجاله مع زعماء الأقباط على التالي:

- أن ينادي على أهل الحصن فردا فردا فيخير بين الإسلام أو البقاء على دين آبائه.

- وكان ذلك بالفعل .. يقول راوي القصة: «فصرنا كلما نودي على رجل منهم فآثر الإسلام كبرنا وهللنا (مع أنه بإسلامه لن يدفع الجزية) فإذا آثر البقاء على دين قومه صرنا كأن واحدا قد انتزع منا» (مع أنه لم يكن منا) ولكن المسلمين الأوائل كانوا يودون لو آمن الناس جميعا بدين الله.

- ربما تشاركها حضارات أخرى في بعض هذه الشروط التي حازتها مثل الحضارة الغربية التي تسعى نحو العالمية ولكن ..

٢- نشر مبادئ وقيم الحضارة الغربية بما فيها الدين المسيحى لم يكن بدافع القناعة والإيمان بالرسالة بقدر ما كان لتأمين وبسط نفوذها الاستعماري وضمان ولاء شعوب هذه المستعمرات وعدم مقاومتهم.

- روت كتب التاريخ كيف أن الملك الإنجليزي هنري الثامن قرر بسبب رغبته في تطليق امرأته والزواج بأخرى اعتناق المذهب البروتستانتى (والذي يعده الكاثوليك دينا آخر تماما) وترك دينه الأصلي هو وشعبه وهو الكاثوليكية، وكان ذلك إيذانا بقرن كامل من

الحروب الدينية في أوروبا .. قرن مليء بالمآسي والفظائع، وهو القرن السادس عشر.

لم تكن هذه الحضارات إنسانية النزعة أو أخلاقية التوجهات ولا زالت ذاكرة التاريخ تحفظ في هذا الشأن ما يندى له الجبين قديما وحديثا، حتى لا نظن أن ذلك كان تاريخا وانقضى.

أخلاقيات الحضارة الغربية:

- هل كانت الحضارة الغربية أخلاقية في اتجاهاتها؟

- هل كانت إنسانية في نزعتها؟

- هذا ما سوف نعرفه باستعراض نماذج تاريخية ومعاصرة توضح مدى أخلاقية الحضارة الغربية:

١ - أسبانيا والبرتغال أول دولتين استعماريتين.. يمتلئ سجلهما بالفظائع والمآسى حيثما حلوا .. - في الأمريكيتين- في الشرق الأقصى (ماليزيا وإندونيسيا)، وذلك مثل:

أ - إبادة السكان الأصليين .. في الأمريكيتين .

ب- هدم مساجدهم ومنازلهم - في الشرق الأقصى- ومنعهم من إظهار عبادتهم.

ج - يروى عن أحد قادة الأسبان في العالم الجديد، ويدعى فرانشيكو بزاريو القصة التالية:

فقد علم صاحبنا بتوافر الذهب في أيدي الهنود الحمر فقام باختطاف ملك الإنكا (من قبائلهم) وطالب شعبه بفدية قدرها ٥٠٠٠ كجم ذهب (٥ أطنان).

فدفعوها وتسلمها .. ثم قتل الرجل.

٢- يجمع المؤرخون في أوروبا وأمريكا على أن عدد من قتلوا من السكان الأصليين في الأمريكيتين يتجاوز المائة مليون، وذلك منذ أن وطئت أقدام كريستوفر كولومبس شواطئ العالم الجديد.

- لم يكن هذا الرقم الضخم دائما وليد المعارك وساحات القتال فحسب، حيث يواجه المدفع بالسهام والنبال، بل كان الغزاة يلجأون في كثير من الأحيان إلى حيل هي أبعد شيء عن الرحمة والشرف والرجولة والإنسانية .

- فقد كانوا يتظاهرون بطلب الصلح والسلام . وكدليل مصداقية يقدمون لهم صناديق الأطعمة والأغطية التى يتضح فيما بعد أنها ملوثة بجراثيم قاتلة كالجدري والجمرة والطاعون فتحصد الأرواح، ومنهم الأطفال الأبرياء والنساء والشيوخ.

- فيقومون بإحراق القرى والجثث حتى لا تنتقل إليهم العدوى.

٣- ذات يوم من أيام الاحتلال الهولندي لأندونسيا والذي امتد ثلاثة قرون، وتحديدا في القرن السابع عشر، خرج حوالي ربع مليون

رجل يطالبون بالحرية لا أكثر .. كانوا لا يحملون سلاحا ولا يفعلون أكثر من المطالبة بحقهم في الحياة الكريمة.. فحصدوهم في ساعات بالمدافع .

٤- قتل البلجيكيون إبان احتلالهم للكونغو أكثر من عشرة ملايين من سكان البلاد الأصليين أواخر القرن ١٩ وأوائل القرن ٢٠؛ لاعتقادهم أنهم في رتبة البهائم وأنهم أحق منهم بخيرات البلاد .

٥- وحتى بعد تحرر دول إفريقيا عسكريا لا زالوا ينهبون خيراتها من ماس وغيره ويتخذون أراضيها مدافن للنفايات النووية...ثم لا يمنعهم ذلك من الحديث عن الحرية والإخاء والمساواة وحقوق الإنسان .. وقبول الآخر.

٦- كيف كان البيض (وأصولهم إنجليزية وهولندية) في جنوب إفريقيا - قبل أن يحصل سكان البلاد الأصليون مؤخرا على حقوقهم- يعاملون هؤلاء البؤساء:

أ - كانت لهم أحياؤهم الخاصة ويمنعون من الاختلاط بالبيض إلا كخدم أو عبيد.

ب- كانت لهم مدارسهم الخاصة.

ج - كانت لهم كنائسهم الخاصة (حتى دور العبادة يمنعون عنها إخوانهم في المسيحية) .

د - كانوا يمنعون من ركوب الحافلات.

هـ- كانت لهم مراحيضهم الخاصة بهم (مرحاض لكل ٢٠٠ مواطن) يصطفون أمامها في طوابير طويلة .

و- وكانوا يضربون ضرب البهائم إذا تقدم أحدهم على رجل أبيض في الطريق.

٧- اصطياد العبيد من مواطنهم في غرب إفريقيا وشحنهم إلى العالم الجديد عبر الأطلنطي في ظروف يندى لها جبين التاريخ حيث ينفق منهم الكثير فيلقون في المحيط ويؤخذ الباقون ليباعوا عبيدا يعملون في كل مجالات الحياة القاسية ومن يفكر منهم في الهرب تقطع يده ورجله.

- ولعل كتاب «جذور» للأمريكي أليكس هيلي، والذي أنتج فيلما سينمائيا يصلح مرجعا للمستزيد.

- وقد أثرت من هذه التجارة أكثر دول أوروبا وخاصة أسبانيا وهولندا وإنجلترا.

٨- ذكر الأديب د. علاء الأسواني أنه التقى في أوروبا أستاذة جامعية إفريقية، وأنها كباحثة ذكرت له حقائق عجيبة عن معاملة الأوروبيين للسود، منها أنهم بعد خطفهم كان بعضهم ـ بدلا من

بيعهم عبيدا في العالم الجديد يوضعون في أقفاص للفرجة مقابل أجر– ويطاف بهم لهذا الغرض عبر أوروبا .

– ويعلق د. علاء على ذلك بقوله: إن معنى ذلك أنهم كانوا يرونهم كالحيوانات!!

وصدق الرجل!!

٩– قتل ٣ ملايين فيتنامي ومثلهم في كوريا خلال عقد كامل من الاحتلال الأمريكى (من منتصف الستينيات إلى منتصف السبعينيات) بحجة تخليص البلاد من نير الشيوعية .

* وللطرافة هي نفس الحجة التي دخلوا بها العراق ودمروها، ألا وهي تخليص العباد من ظلم صدام.

* وهي نفس الحجة التي علل بها نابليون غزو مصر، ألا وهي تخليص البلاد من ظلم المماليك !!

* وهي نفس الحجة التي علل بها الإنجليز غزوهم لكثير من بلاد الشرق العربي، ألا وهي تخليص الناس من ظلم العثمانيين... وما أعجب منطق هؤلاء!!

١٠– قتل مئات الآلاف في هيروشيما ونجازاكى بالقنبلة الذرية الأمريكية ردا على ما فعله اليابانيون في بيرل هاربر، وما خلفه ذلك من مآس.

١١- فظائع الإنجليز في فلسطين قبل إلغاء الانتداب والتي ضمنها الأستاذ البنا كتاب «النار والدمار في فلسطين» ، والذي بذل الإنجليز المستحيل لإخفائه .

١٢- حروب البلقان - التطهير العرقي والإبادة في (البوسنة - وكوسوفو)- في عقد التسعينيات من القرن الماضي وكلها منصبة حول المدنيين من النساء والأطفال والشيوخ.

- والآن بعد توقف المدافع في البلقان.. لا زالت المنظمات الإغاثية الإسلامية - مع قلتها في العدد والإمكانات- لازالت تعاني الأمرين من القوات الدولية.

- حدثني أحد شهود عيان أن الساحة تفتح على مصراعيها للمنظمات المسيحية ويمنع أهل البلاد وأغلبهم من المسلمين من إظهار هويتهم الدينية، وتمنع منظمات الإغاثة الإسلامية من عملها .

١٣- حرب الأفيون مطالع القرن ١٩ في الصين، وخلاصتها أن إمبراطور الصين لاحظ خلال جولاته في البلاد تكاسل الناس الشديد عن العمل، فأخبر أن التجار الإنجليز يجلبون عشبة من العالم الجديد (الأفيون) يتعاطاها الناس طمعا في الشعور بالراحة والسعادة فيكون هذا حالهم.

- بالطبع أصدر الرجل قرارا بمنع هذه السلعة المدمرة، فماذا فعل الإنجليز؟ لقد وجهوا للإمبراطور إنذارا خيروه فيه بين ثلاثة خيارات:

أ- إلغاء القرار .

ب- تعويض التجار بمبالغ طائلة.

ج- ضرب بكين والقصر الإمبراطوري بالمدافع ..

وقد كان .. فضربت بكين بالمدافع حتى أن الصينيين عندما رمموا القصر الإمبراطوري أبقوا على بعض جوانبه دون ترميم لتبقى شاهدا على مر التاريخ على مدنية الإنجليز وتحضرهم ومفهوم العدل عندهم.

١٤- فظائع فرنسا في مستعمراتها وخاصة المغرب العربي ليست أقل .. **فعلى سبيل المثال:**

أ- في عام ١٩٤٥ قتل أكثر من ٤٠.٠٠٠ خلال ساعات – ذات يوم – في إحدى المناطق التى كانوا يظنون أنها قد أوت بعض المجاهدين الذين لم يفعلوا أكثر مما فعل هؤلاء الفرنسيون مع الاحتلال الألماني لبلادهم .

ب- طرد أحد المبعوثين المصريين الذين ابتعثوا لدراسة القانون في باريس وهو د.أحمد كمال أبو المجد أوائل الخمسينيات لمجرد أنه ألقى كلمة حماسية في المسجد.. يعنى لا في الشارع ولا على صفحات الجرائد، يناصر فيها الجزائريين الذي يتعرضون للإبادة .

ج- فرنسا كانت ولا زالت تعتبر هذه البلاد حقا تاريخيا لها، ولا زالت تؤلب البربر والقبائل وتصر عبر صحافتها ومفكريها على نشر التنصير لتعود الجزائر مسيحية.

١٥- منع بث إرسال قناة المنار التابعة لحزب الله لمجرد الاختلاف في الرؤى والأفكار.

- وهكذا ترى عاصمة النور والحرية ثقافة التنوع وقبول الآخر ومن يخالفها الرأي.

١٦- عندما وصل نابليون بجيوشه إلى حيفا طلب من حاميتها تسليم أنفسهم وسلاحهم مقابل الأمان، فصدقوه فحصدوهم جميعا.. أربعة آلاف نفس بشرية. وهكذا يكون الشرف وهكذا تكون أخلاقيات الحضارة الغربية.

١٧- إيطاليا ... في غزوها لليبيا:

أ- قتل المدنيين بمدافع الطائرات (لأول مرة في التاريخ استخدمت الطائرات في أغراض عسكرية كانت هي هذه).

ب- قتل الأسرى رميا بالرصاص من الخلف، بالمخالفة لكل الشرائع والقوانين، ومنها اتفاقية جنيف للأسرى التي صاغتها مدنيتهم.

ج- الإجهاز على الجرحى في ميادين المعارك .

١٨- وأمريكا.. زعيمة الحضارة الغربية:

أ- ذكر أحد كوادر المخابرات المركزية «أمريكي» أنهم كانوا يخلطون اللبن المصدر لبعض دول العالم الثالث الصديقة لهم كمعونة بالأسمنت الأبيض؛ لاتهام حكام هذه البلاد- إذا جد جديد في عالم المصالح والتوازنات أو فكر هؤلاء أن يتمردوا عليهم - بأنهم يقتلون شعوبهم.

ب- الإجهاز على أسرى العراق (المقاومين لهم) وانتهاك حرماتهم وقطع أعضائهم أحياء لبيعها لتجار زراعة الأعضاء.

ج- قتل وتشريد المدنيين في العراق (أكثر من مليونين)، روى شهود العيان أن منهم أطفالا ونساء كانوا يرفعون لافتات تبين أنهم أطفال ونساء، وأن كل ما يطلبونه هو المرور الآمن للخروج من مناطق القصف .

د- أحداث قلعة جانجي بأفغانستان وسجن أبي غريب بالعراق ومعتقل جوانتانامو بكوبا التابع لأمريكا.. من تعذيب الأسرى - وانتهاك حرماتهم ـ وتمزيق مصاحفهم.

- وقد أثبتت التحقيقات أن سلوك الجنود لم يكن فرديا بل كان بناء على أوامر .. فماذا حدث لهم؟ لا شيء.

هـ- قانون الأدلة السرية الذي يراه الشرفاء سبة في جبين أمريكا حيث يدان المتهم (المسلم غالبا) بتهم لا يطلع عليها لا هو ولا محاميه.

و- تلفيق التهم للمسلمين ... مثل هذا الأستاذ الجامعي الذي برئ من تهم مساعدة التنظيمات الإرهابية فطلب منه أن يشهد زورا على متهمين آخرين فلما رفض وجهت له تهمة ازدراء العدالة التي تصل عقوبتها إلى السجن ٢٠ عاما.

- وهناك أمثلة كثيرة من هذا النوع.

ز- وقد حوى كتاب (ماذا يريد العم سام؟) الصادر مؤخرا لأستاذ جامعي مرموق له مكانته في أمريكا والعالم هو الأمريكي اليهودي نعوم تشوسكي كل الفضائح التاريخية التي مارستها أمريكا ضد خصومها وطريقتها في تصفيتهم والتعامل معهم بقسوة وبشاعة.

١٩- الصمت التام حتى في خطاب أوباما بجامعة القاهرة صيف ٢٠٠٩ عن أحداث ضرب غزة ٢٠٠٨ حيث ١٥٠٠ قتيل + ٥٠٠٠ جريح بأسلحة محرمة دوليا .

مع ذلك يملأون الدنيا ضجيجا إذا اشتموا رائحة تهريب سلاح أو طعام لهؤلاء المساكين.

- يفعلون ذلك بمساعدة المنظمات الدولية وأنظمة عربية متواطئة.

- وحين يقررون صرف المساعدات فهم يقصدون مليونيرات السلطة في رام الله؛ لأنهم لا يعترفون بمن يقاوم بغير المفاوضات.

٢٠- النظام السوداني.. الذي تعامل مع التدخلات السافرة في بلاده، ومنها حركات التبشير، كأي نظام يحترم نفسه، أرادوا تأديبه تمهيدا لخلعه كما خلعوا عيدي أمين في أوغندا لنفس السبب، فأدانته محكمة العدل الدولية بتهمة الإبادة الجماعية في دارفور.. وكأن المطلوب من حاكم دولة مثله أن يقف مكتوف اليدين أمام حركات الانفصال المسلحة المدفوعة بهم ومنهم، والتي راحت تعيث في الأرض فسادا .

٢١- علق أوباما على الفتاة الإيرانية التى ماتت في المظاهرات التى اندلعت بعد ظهور نتائج الانتخابات الرئاسية هناك (مع أن أحدا بعينه لم يتهم حتى الآن). وقد ثبت أنهم قدموا لهم الدعم الإعلامى بل والمادي بقرار الكونجرس.. علق على ذلك قائلا: إن القلب ليتمزق لأجل هذه الفتاة... مع أن أحدا لم يسمع له صوتا على آلاف القتلى والجرحى بأسلحة محرمة في غزة.

- ومع أن أحدا لم يسمع له صوتا على السيدة المصرية التي قتلت ببشاعة منقطعة النظير أمام أهلها في دريسدن بألمانيا... وفي قلب قاعة المحكمة .

٢٢- هؤلاء هم أحفاد الصليبين الذين دخلوا الشام والقدس:

أ- فأراقوا دماء أكثر من ٧٠.٠٠٠ في القدس وحدها، ومثلهم في أنطاكية وغيرها، حتى سالت بدمائهم الطرقات.

ب- غلوا المسلمين في القدور وشووهم على النار، كل هذا بشهادة مؤرخيهم.

٢٣- في خطابه أمام الكونجرس بتاريخ ٢٩/ ١/ ٢٠٠٢م، الذي لم تنشره في مصر سوى مجلة الجيل، قال جورج بوش الابن في نهاية حديثه مشيرا إلى العالم الإسلامي:

«سنجيعهم حتى يركعوا ولن نرحم بكاءهم ولا بكاء أطفالهم، وسنمنع عنهم كل سبل التنمية».

- حقا لقد بكى أطفال العراق المحاصرين أكثر من عشر سنوات لأجل الحليب والدواء والمحاقن، حتى بلغ عدد الضحايا حسب شهادة جورج جالاوي أكثر من ٢٠٠٠ طفل / أسبوع .. كل هذا فلم يرحم بكاءهم .. كما وعد.

٢٤- عدم احترام نتائج الديمقراطية المعبرة عن إرادة الشعوب مثل انتخابات فلسطين ٢٠٠٥؛ لأنها جاءت بمن لا يحبون .. فكان السعى إلى تخويفهم ثم ضربهم ٢٠٠٨، بل وحبس واعتقال كل من يمد لهم يد العون.

٢٥- وكذا الحال في الجزائر أوائل التسعينيات ..

* * *